

العنوان:	الحضور المخزني بوادي درعة في العصر العلوي الأول
المصدر:	أعمال ندوة حوض وادي درعة - ملتقى حضاري وفضاء للثقافة والإبداع
الناشر:	جامعة ابن زهر - كلية الآداب والعلوم الإنسانية
المؤلف الرئيسي:	عمالك، أحمد
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1992
مكان انعقاد المؤتمر:	أكادير
الهيئة المسؤولة:	كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة ابن زهر
الشهر:	نوفمبر
الصفحات:	55 - 71
رقم MD:	417861
نوع المحتوى:	بحوث المؤتمرات
قواعد المعلومات:	HumanIndex, AraBase
مواضيع:	العمل والعمال، المغرب، وادي درعة، تاريخ درعة، الدولة العلوية، تحصيل الضرائب، الملوك والحكام، الحضور المخزني
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/417861

الحضور المخزني بوادي درعة في العصر العلوي الأول

أحمـد عمالـك
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مـراكـش

يتوخى هذا العرض وصف حضور المخزن في هذه المنطقة طيلة العصر العلوي الأول، ومحاولة إبراز الأدوار التي اضطلع بها ممثلوه للسهر على سريان الأحكام المخزنية في وادي درعة بمعنى آخر محاولة تعقب مراحل التمثيل المخزني في حضوره وغيابه، عبر ممثلي المخزن في هذه المنطقة النائية.

ولن نغالي إذا اعترفنا أننا لم نستطع الكشف عن طبيعة ذلك الحضور المخزني، ولا إبراز الممارسة المخزنية، في هذه المنطقة. كما أننا لم نستطع تحديد الروابط بين الممثلين المخزنيين، وبين القبائل و «الزعامات المحلية» كالزوايا بصفة خاصة ولم نتوصل إلى معرفة مختلف الأجهزة المخزنية. فلا نعرف إلا العامل والقائد، وبشكل مثغور أحيانا. وسوف لا نجازف بالتكهن بكيفية سريان الأحكام المخزنية في أثناء الحضور المخزني بوادي درعة نظرا لغياب المصادر.

هذا الوادي الذي شكل، على ممر العصور، همزة وصل بين جبال الأطلس شمالا، والصحراء جنوبا، وكان ممرا طبيعيا للهجرات البشرية، وطريقا تجاريا مطروقا بكثافة، منذ القديم، الأمر الذي كان له أثر في انتظام النسيج الديمغرافي العام لسكان واحاته.

ولعل كونه خزانا بشريا وطريقا تجاريا هو ما حذا بمختلف الأسر التي تعاقبت على حكم المغرب لأن تبدي مزيدا من الاهتمام به، فاتخذه السعديون قاعدة انطلق منها مشروعهم السياسي، وفي أثناء توطيد حكمهم عمدوا إلى بناء

عدد من الحصون والتحصينات العسكرية على طول الوادي [1]. وكان قصر بني زولي وقصبة تنزولين مقري عمال المخزن السعدي الذين تولوا النظر في شؤون المنطقة [2].

وبعد وفاة أحمد المنصور غدا وادي درعة ميدانا للصراعات السياسية والعسكرية بين مختلف أدعياء الحكم من سوس وتافيلالت وغيرها. فقد زحف إليها جيش السملاليين بقيادة سعيد بن عبد الله المراكشي، ودارت بينه وبين عامل السعديين ـ المستقر بقصبة تنزولين ـ معارك دامية. تعرضت فيها القصور «للنهب والسلب واسترقاق الأحرار وهتك الحرم» [3]. انتهت تلك المعارك باستيلاء أبي حسون على درعة سنة 1626/1035 [4]. ورغم ذلك يبدو أن نفوذ السملاليين لم يكن نافذا بنوع من الكثافة إلا في الواحات الشمالية، لاسيما وأنها تقع في الطريق المؤدية إلى تافيلالت.

يذكر المختار السوسي أن أبا حسون قد اقتتل هنالك مع أهل مزجيطة وغيرهم من القبائل المجاورة، وهدم «قصورهم وسواقيهم» [5] ولعل المولى محمد بن الشريف قد نجح في إثارة سكان الواحات الجنوبية ضد السملاليين تمهيدا لاجلائهم عنها، لاسيما بعد ما تم طردهم من تافيلالت «فقام السلطان العلوي بمهاجمة مواطن السملاليين في درعة، ووقعت بينه وبينهم حروب فظيعة [6] ولعل تلك الفترة كانت من أحلك الفترات التي عرفها ذلك الواديّ، إذ نتج عن تلك الحروب انهاك المنطقة اقتصاديا وبشريا لكنها دخلت منذئذ (1641/1052) تحت سيطرة المولى محمد الذي ضمها إلى ايالته بعد ما قام بحملة تطهيرية ليقضي على كل من أبدى نوعا من المعارضة، ولاسيما بعض السوسيين الذين ارتبطت مصالحهم بأبي حسون [7].

---

1. **أحمد البوزيدي** : التاريخ الاجتماعي لدرعة. مطلع القرن 17 ـ مطلع القرن 20 دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية د.د.ع. الرباط 1988 . 387.
2. ن.م.س. : 388.
3. محمد الصغير الافراني :نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، نشرة هوداس ط II الرباط. 231.
4. محمد المختار السوسي : ايليغ قديما وحديثا. هيأه للطبع وعلق عليه محمد بن عبد الله الروداني، الرباط 1966. ص. 59.
5. ن.م.س. : 117.
6. الافراني : 301.
7. المختار السوسي : 130.

لكن يبدو أن أهل درعة قد استبشروا خيرا بجلاء السملاليين عن المنطقة خاصة وأن عسفهم في ميدان الجباية كان كبيرا [8]. لذلك لم يكن من الغريب أن يبادر سكان وادي درعة إلى مبايعة المولى محمد، الذي قام بزيارة درعة ونزل عند أحد تجار تامكروت [9]. ولعل هذا النزول لا يتأتى بدون سريان نفوذه في المنطقة. نستفيد من رسائل ابن ناصر أن سلطة المولى محمد كانت تنفذ في سكان الوادي بواسطة عدد من القواد نذكر منهم : عبد الله الزينبي الذي تولى على أيت زينب وما والاها [9م]، وعبد الملك بن عبد الكريم على تماكروت وما حولها (9م م)، ويظهر أثر سريان نفوذه في لجوء بعض أعيان درعة إليه لحل بعض المشاكل. في هذا أنكر محمد ابن ناصر شيخ تامكروت، أشياء على قاضي درعة، محمد بن الحسين التكمادرتي، فرفع أمره إلى السلطان، الذي تدخل على التو، فعين قاضيا آخر [10]. ولم يأل الشيخ بدوره، جهدا في التدخل مباشرة لدى السلطان يترفقه ويستعطفه في إطلاق سراح رجلين من منطقة الرزكان [11] وتدخل لديه مرة أخرى ليقترح عليه تولية الفقيه السيد عربي بن عبد العزيز فتوى درعة وسجلماسة، وختم رسالته بقوله : «ذلك أقسط وأقوم للدين وأمهر لثبات ملكك، واستقامة الأحوال. إذ بصلاح حال قضاة الملك تصلح الأمور كلها» [12]، مما يدل على حضور المخزن بدرعة. وعلى التجاوب الذي وقع بين السلطان وبين شيخ الناصريين الذي أصبح يسدي النصح إليه. بل إن ذلك قد صار بالنسبة لمحمد ابن ناصر من قبيل التحدث بالنعم، فقال منوها بقاضي درعة لدى عبد الملك التجموعتي : «من حسنات أمير المومنين سدده الله وهي تولية قضاء درعة سيدي محمد بن علي الدادسي» [13].

---

8. الناصري : أحمد بن خالد. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. الدار البيضاء 1956. 7 : 15.
9. الناصري : محمد المكي بن موسى : الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة. تحقيق وتقديم محمد الحبيب النوحي د.د.ع. الرباط 1988 - 355.
9م اتحاف المعاصر 38.
9م م اتحاف المعاصر 39.
10. ن.م.س. : 435 الناصري أحمد بن خالد : طلعة المشتري في النسب الجعفري طبعة فاس. 1 : 144 - 146.
11. الدرر المرصعة : 393.
12. محمد ابن ناصر : اتحاف المعاصر برسائل الشيخ سيدي محمد ابن ناصر. جمعها محمد المكي الناصري نسخة خاصة : 20.
13. اتحاف المعاصر : 2.

ويظهر أن علاقات ممثلي المخزن بالزوايا ـ ولاسيما تامكروت ـ كانت على ما يرام. نستفيد ذلك من خلال تدخلات محمد ابن ناصر المتكررة لديهم فقد استمهل القائد عبد الملك بن عبد الكريم في هدم قصبة المثاربة، ليفسح المجال أمام سكانها حتى ينقلوا أمتعتهم وأثقالهم [14] واستحث القائد عبد الله الزينبي على التدخل لدى السلطان لشد عضد القاضي محمد بن علي الدادسي حيث يفرض له أجرا [15]. من جهة أخرى فقد شكلت الزاوية امتدادا للمخزن، حيث قام شيخها بأعمال الوساطة والتحكيم لاحلال الأمن والاستقرار بالوادي [16] وفي هذا الاطار تدخل لدى خدام المولى محمد من الروحة، وتدخل ثانية لدى شيوخ لكتاوة، وعقد «العافية» عدة مرات لسكان القصور [17].

درعة تابعة لعمالة تافيلالت :

وحين بويع المولى الرشيد وفدت عليه الوفود بفاس لتقديم البيعة، وجدد سكان درعة بيعتهم له [18]، فعين ابن أخيه أحمد بن محرز خليفة له على سجلماسة والصحراء وتوات ودرعة [19]. وفرض مراقبة شديدة على بعض الزعامات المحلية، ولاسيما تامكروت [20] حيث أصدر أمره لأحد قواده بنهب الزاوية وتغيير شيخها، الذي لم يكن يدعو له على المنبر [21]. من الممكن أن يكون ذلك القائد هو ممثل العامل على درعة. ومهما يكن من أمر فقد أوغر صدر السلطان على الشيخ فوجه المولى الرشيد رسالة، يتضح من الجواب عنها، أنها تضمنت تهديد الشيخ، وتحذيرا له [22]. ولتبرئة ساحته يرحب الشيخ بقدوم السلطان، ويبدي الانصياع لأوامره ويقدم إليه فروض الطاعة. ثم يسدي إليه النصائح، ويحمله مسؤولية استخلافه في الأرض، وما يتطلب ذلك الاستخلاف

14. ن.م.س. : 28.
15. ن.م.س. : 39.
16. ن.م.س. : في جهات متفرقة.
17. ن.م.س. : 40 مثلا.
18. أحمد البوزيدي : 183.
19. محمد بن الطيب القادري : نشر المثاني لاهل القرن الحادي عشر والثاني تحقيق د. محمد حجي ود. أحمد التوفيق (2 : 201).
20. الدرر المرصعة : 164.
21. ن.م.س. : 360.
22. اتحاف المعاصر : 32.

من الوقوف على ساق الجد في أمور الرعية. ولعل هذا الجواب قد خفف من روع السلطان، فتراجع عن القدوم إلى تمكروت، لكن يبدو أنه ظل يراقبها عن كثب [23] بل إن الاتصالات بين ممثلي المخزن، كأحمد بن محرز وأخيه مولاي الطالب وبين الشيخ ظلت مستمرة. ولم يكن أحمد بن محرز يألو جهدا في التضييق على الشيخ واستفزازه كلما وجد إلى ذلك سبيلا. ربما كان يفعل ذلك لاستدراجه إلى إتاحة الفرصة للتدخل في شؤون الزاوية. لكن محمد ابن ناصر كان يواجهه بالاقناع وتوطئة الأكناف، فيتجاهل مقاصده وينزهه عن التنازل في بعض مطالبه [24].

وتبين مختلف القرائن المستنبطة من رسائل محمد ابن ناصر، الموجهة إلى أحمد بن محرز وبعض أفراد بطانته أن الحضور المخزني قد اختص في عهد المولى الرشيد، بمراقبة الزاوية الناصرية واستكناه مرامي شيخها.

ومن القضايا التي استرعت اهتمام الحضور المخزني بوادي درعة قضية القبائل المتنقلة، ولاسيما أيت عطا الذين كانوا قد استكملوا تشكيل اتحاديتهم. ولعل انشغال السلاطين بتدعيم السلطة بالبلاد كان يفسح المجال أمام تلك القبائل لتنصرف إلى غزو الواحات ونهبها، فأضروا بالسكان المستقرين، وبقوافل التجار وبذلك كانوا يخلون بتوازنات المنطقة. ومن ثم شكلوا منبع تشغيب وقلق دائم بالنسبة للمخزن [25]. وقد تقوى جانبهم حين انضووا تحت لواء ثورة أحمد بن محرز. ذلك أن المناطق الجنوبية قد تخلفت عن مبايعة المولى اسماعيل بإيعاز من هذا الثائر [26]. وتتضمن رسالة جوابية بعث بها الشيخ إلى المولى اسماعيل نوعا من المجاملة، واهتماما بالغا بمنطقة درعة لكنه يطلب منه أن يتدخل لتعزيز من يسميهم «أغمارا الاعقول لهم» [27]. لعله يقصد القبائل التي استغلت ثورة أحمد بن محرز لممارسة السلب والنهب وربما أن تامكروت لم تنج بدورها من تمردهم.

من المحتمل أن موقف اللين الذي أبداه السلطان كان مرتبطا بالظرفية الصعبة التي تجتازها البلاد آنذاك فسلطته كانت ما تزال هشة في المناطق

23. الدرر المرصعة : 376.
24. اتحاف المعاصر : (33 ــ 35).
25. أحمد البوزيدي : 46.
26. محمد بن موسى الريفي : زهر الاكم، دراسة وتحقيق أسية بنعدادة. الرباط 1992، 153 ــ 155.
27. اتحاف المعاصر : (31 ــ 32).

الجنوبية. أي أن الموقف كان ظرفيا، كما يستفاد من الرسالة الجوابية التي بعث بها ابن ناصر إلى مولاي المامون ابن اسماعيل ـ عامل تافيلالت ـ [28]، حيث يعرض بوشاية حملت إلى العامل المذكور لا يغار صدره على الشيخ الناصري، قد يفهم منها أيضا أن العامل قد تشكك في موقف ابن ناصر من ثورة أحمد بن محرز، لاسيما وأن العلاقة بين الرجلين كانت قائمة قبل هذا العهد.

ولتأكيد حضورَ المخزن بوادي درعة جرد السلطان المولى اسماعيل حملة عسكرية لمحاربة أيت عطا، سنة 1978/1089 [29]. ورغم الهزيمة التي مني بها هؤلاء فقد ظلوا يشكلون منبع قلق دائم بالنسبة للمخزن [30] حتى ان الحسن اليوسي وجه إلى السلطان رسالة يستحثه فيها على محاربتهم لأنهم أضروا بالسابلة [31].

استحــداث عمالــة درعــة :

ورغم محاولات تدعيم الحضور المخزني، فإنه ظل ضعيفا بسبب بعد درعة عن مقر العامل، الأمر الذي دفع السلطان إلى استحداث عمالة خاصة بها سنة 1695/1106 [31م] في واحة ترناتة التي تتوسط واحات درعة، وتشرف على الطريق العابرة للوادي كما بإمكان المتحكم فيها رصد تحركات قبائل أيت عطا التي كانت تهاجم سكان درعة، انطلاقا من الجنوب والشرق.

تشير المصادر إلى أن محمد العالم سار في أهل درعة سيرة حسنة، حيث خالط الناس وغشي مجالس العلم. وفي هذا الأطار كانت علاقته بالزاوية الناصرية على ما يرام، فمدحه شعراؤها وأثنوا عليه وأشادوا بأعماله [33].

ولعل تقاربه مع الناصريين قد استمر حتى بعد عزله عن ولاية درعة، مما جعل السلطان يتشكك في الشيخ أحمد ابن ناصر، ويستقدمه إلى مكناس سنة 1696/1107 [34]، لاسيما وأن هذا الشيخ لم يكن يذكر السلطان في خطبه

28. ن.م.س.
29. زهرة الأكم : 163 ـ النشر 2 : 252.
30. البوزيدي : 183.
31. الحسن بن مسعود اليوسي : الرسائل. تحقيق فاطمة خليل القبلي (1 : 212 ـ 213).
31م الدرر المرصعة : 121.
32. أحمد البوزيدي : 186.
33. الدرر المرصعة : 255 ـ 260.
34. طلعة المشتري : 2 : 58.

على المنبر [35]. ولعل ذلك أيضا، من الأسباب التي دفعت السلطان إلى اتهام أحمد ابن ناصر ـ فيما بعد ـ بمؤازرة ابنه محمد العالم، في ثورته بتارودانت سنة 1693/1114 [36].

وبالرغم من أن الشيخ حاول تفنيد ذلك الاتهام، واعتبره من قبيل الأوهام والتسويلات، وبالرغم من دفاع أحمد الهشتوكي عن شيخه، فإن الحزم السياسي جعل السلطان يتخذ ذلك الموقف [37]. وقد عمد السلطان هذه المرة إلى الضغط على الشيخ الناصري، ومنعه من التوجه إلى الحج، كما استقدمه إلى قصره ... [38] لعله فعل ذلك ليتأكد من طوية الشيخ، وليؤكد بواسطته حضور المخزن بوادي درعة. هذا الحضور الذي قد يتأثر في نظر السلطان إذا ظل شيخ الزاية حرا في اتخاذ بعض القرارات بكامل الاستقلال عنه.

وبعدما انتقل محمد العالم إلى عمالة سوس، في إطار تقسيم أعمال المغرب الذي قام به السلطان سنة 1700/1111، ولى ابنه عبد الملك على درعة ونواحيها فنزل قصبتها، ورتب معه حامية عسكرية تتكون من ثلاثة آلاف من الفرسان [39] وهكذا يتضح أن الحضور المخزني أصبح مدعوما عسكريا.

لكن لم تمض على ولاية عبد الملك سوى ثلاث سنين حتى قام أخوه أبو النصر بالثورة عليه، فصار الحضور المخزني مثار الاضطراب والمواجهة العسكرية [40] فقد قدم إلى درعة بجيش كثيف فاستولى عليها وطرد أخاه واحتل مقر العمالة [41] فصارت عمالة درعة تابعة لعمالة سوس، لأن ثورة أبي النصر ربما كانت بإيعاز من محمد العالم الثائر بتارودانت.

وقد عمل أبو النصر بدوره على التقرب من أعيان المنطقة لايجاد بعض نقط الارتكاز ولتدعيم نفوذه.

ومن الممكن أنه نجح في التقرب من الناصريين الذين كانت زواياهم في ترناتة وفزواطة. ويتضح ذلك حين تدخل الشيخ أحمد ابن ناصر للتوسط بينه

---

35. ن.م.س.
36. محمد ماكمان : الرحلات المغربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر د.د.ع. الرباط 1987 ـ 361.
37. أحمد بن محمد الجزولي، الهشتوكي : الرحلة الأولى. خع.ق. 190 الرباط 45 ـ 46.
38. طلعة المشتري 2 : 78 ـ 79.
39. الناصري : الاستقصا (7 : 89).
40. أحمد بن القاسم الزياني : الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب نشرة هوداس : 26.
41. زهر الاكم : 177. الدرر المرصعة : 68 ـ 69.

وبين أخيه المولى الشريف الذي قدم إلى درعة ليسترد العمالة من يده [42]. فقام المولى الشريف بمحاصرة أبي النصر داخل قصبة أغلان، لكن الشيخ تدخل بينهما، فتكفل بسلامة أبي النصر شريطة أن يتخلى عن عتاده ويغادر المنطقة [43].

ومن خلال الرواية التي قدمها صاحب الدرر، يمكن الحديث عن انحياز الشيخ الناصري إلى جانب أبي النصر، على الرغم من هزيمته أمام المولى الشريف [44] مما قد يدل على أن التقارب بين الرجلين كان وثيقا.

إلا أن المولى الشريف استطاع أن يقوم بإجلاء أخيه عن قصر الامارة ويستقر به منذ نهاية 1703/1114 [45] فجسد حضورا مخزنيا فعليا في المنطقة.

إلا أن ولاية المولى الشريف على درعة لم تطل لذلك تحدث البعض عن ولايته الأولى وولايته الثانية. وبهذا الصدد ذكر محمد المكي بن موسى الناصري أن القاضي عبد الكبير بن أحمد التنفوري وفد على المولى الشريف المعزول عن درعة، والمستقر بقصبة بوادي الرتب [48] فمدحه بقصيدة أشاد فيها بطيب أيامه في أثناء ولايته على درعة، وتمنى رجوعه إليها. ثم ذيلها برسالة يشكوه فيها ما نابه من قسوة الدهر، فيتحدث «عن السلب بعد العطاء، والوحشة بعد الانس ويتمنى أوبته وتسكين روعته بعودته» [49].

وعلى الرغم من قصر المدة التي قضاها المولى الشريف في ولايته الأولى بدرعة، فلاشك أنه نجح في مد جسور التواصل مع الناصريين ولا يستبعد أنه سار في أهلها سيرة محمودة، فحقق بعض الاستقرار والأمن وكرس الوجود المخزني. وقد نوه به قاضي الجماعة المذكور لأنه أقام العدل بين الناس، ولأنه استطاع ردع القبائل المتنقلة التي كانت تعيث في المنطقة في غياب المخزن.

42. ن.م.س.

43. طلعة المشتري 2 : 105.

44. الدرر المرصعة : 69.

45. ن.م.س. وابن زيدان : اتحاف اعلام الناس. 1932. 4 : 63.

46. M. Morsy: La relation de Thomas pellow ... 118

47. ن.م.س. : 120.

48. الدرر المرصعة : 260.

49. ن.م.س. : 261. 262.

ولعل عزل المولى الشريف عن درعة قد ترك فراغا بالمنطقة كما يشير إلى ذلك قاضي درعة بقوله :

ثم قضى الدهر أن زالت ولايته — عنا فأحزننا ما كان يسلينا
فما يلوح لناشيء نسربه — ولا سلونا ولا ترقى مآقينا
حرمنا منك ولاية مظفرة — أقامت العدل والاحسان والدينا
كانت لنا ولكل الناس واقية — ومن شرور العدا أمنا وتحصينا (50)

من المحتمل أن الفراغ الذي أحدثه عزل المولى الشريف عن درعة قد جعل المنطقة تتعرض لغزو قبائل أيت عطا، والتضييق على أهلها، وهي أمور ترشح من الأبيات المذكورة، ونجد مداها في الرسالة المشار إليها.

لماذا عزل السلطان المولى الشريف عن ولاية درعة، وهو يعلم علم اليقين أن ذلك العزل قد يضر بالحضور المخزني في المنطقة ؟ الا يكون المولى الشريف قد ارتكب خطأ ما، أو أن السلطان نمت إليه عنه وشاية ما ؟

لاشك أن هناك أمرا هاما دفع السلطان إلى اتخاذها هذا الاجراء، لاسيما وأن البلاد تعرف انذاك ظروفا صعبة قد تجعل هذا العزل من قبيل المجازفة.

فثورة محمد العالم ما تزال مستمرة في سوس، ولعل درعة هي الامتداد الطبيعي لتلك المنطقة، وشيخ تامكروت كان ما يزال ماضيا على عدم الدعاء للسلطان على منابر المساجد، مما قد يوحي بنوع من التوتر في العلاقات بين الجانبين. وكان أيت عطا يتربصون الدوائر بسكان وادي درعة، وينتظرون مثل هذا الفراغ الذي أحدثه عزل الوالي المخزني.

إن المصادر التي بين أيدينا لا تسعف بجواب يشفي الغليل، لكننا سنقدم بعض الفرضيات بناء على معطيات قد تلقي بعض الضوء على هذه القضية.

1. إن السلطان قد تشكك في موقف ابنه المولى الشريف تجاه تامكروت لأن الأمير لم يتدخل لدى الشيخ لحمله على الدعاء للسلطان، بل إنه كان يتردد على مجالسه كما يشير إلى ذلك صاحب الدرر بقوله : «ومعه [أي مع أحمد ابن ناصر] جماعة من أصحابه، وفيهم المولى الشريف جالس،

50. ن.م.س.

والشيخ مستقبل له بوجهه، فأحضر الطعام، فلما فرغ منه إذا منشد قائم بين يديه، ولا أدري هل هو منشد على لسان الشيخ أم لا ... ؟ وقال منشدا :

«قل للهمام الشريف الأوحد (*) انـي أحـبك في سر وإعـلان
أبقاك ربي بقاء الدهر مكتسبا معالـي المجـد من بر وإحسان

إلى أن سرد مائة قافية» [51].

يوحي هذا النص، في الظاهر، بالتقارب الوثيق بين الأمير والشيخ الناصري، وهو أمر قد ينزعج له السلطان في أثناء تلك الظرفية، التي تميزت بثورة محمد العالم فمن المحتمل أن يتواطأ المولى الشريف مع شقيقه، لاسيما وقد عرف بالقوة وشدة البأس في الحرب. كما أن العلاقة مع تامكروت ما تزال مطبوعة بالتوتر بسبب تشكك السلطان في تورط شيخها في الثورة أيضا [52]. ولا أدل على انزعاج السلطان من أنه فرض على ابنه نوعا من الإقامة الإجبارية بوادي الرتب. ومعلوم أنه لم يكن ليغفر لأحد من أبنائه إذا ارتكب هفوة في أثناء قيامه بمهمة ما. ولعل السلطان قد توصل ـ عن طريق عيونه من بطانة ابنه ـ بتفاصيل اتصالات ابنه بشيخ الناصريين، مما جعله مرتابا في أمره.

2. لكن أليس من الممكن أن يكون الشريف في أثناء تردده على تامكروت، قد كان يمارس مهمته المخزنية ؟ الواقع أن الشريف قد نال حظوة لدى الناصريين حتى أفرد له محمد المكي الناصري ترجمة ضمن أعيان درعة. وحلاه بالأديب المشارك في جميع العلوم». ونوه بصحبته وإجلاله للعلم والعلماء، وولعه بكتب التاريخ والأدب. فمدحه شعراء الناصريين [53] بل جعله نفس المؤلف من ضمن من صحبوا الشيخ أحمد ابن ناصر وأخذوا عنه الطريقة [54].

ومن ثم لعل محبته للعلم وأهله جعلته يمارس حضور المخزن عن طريق التقارب مع الزاوية التي لم تكن تثير ارتيابه، بل لعلها كانت تشكل امتدادا للمخزن، خاصة وأنها تقوم بالتحكيم وتساهم في إحلال الاستقرار والأمن،

* يبدو أن هذا المصراع مكسور الوزن.
51. ن.م.س. : 187
52. ن.م.س. عند الاحالة (36).
53. ن.م.س. : 177
54. ن.م.س. : 187

وتسهر على تطبيق الشرع وهي أمور لا تتنافى بتاتا مع أهداف المخزن. تبقى قضية الدعاء للسلطان على المنابر، فلعل الشريف قد أدرك ما كان ثاويا وراء ذلك فترك الشيخ وشأنه، ما دام يراقبه باستمرار.

لكن السلطان يعين من جديد المولى الشريف عاملا على درعة. فكيف حدث هذا التحول ؟ لعل هذه التولية بعد العزل جاءت نتيجة بعض الأسباب منها :

1. يبدو أن حالة التوتر بين السلطان وتامكروت قد انتهت ـ مؤقتا ـ بعدما استقدم المولى اسماعيل أحمد ابن ناصر للمرة الثانية إلى مكناس سنة 1707/1119 [55]، وأخذ عنه الطريقة [56].

2. قد ينعكس التقارب بين السلطان وشيخ الناصريين على علاقة المولى الشريف بوالده.

3. في سنة 1712/1123، قام أبو النصر مجددا بالثورة في سوس [57]، الشيء الذي دفع السلطان إلى البحث عن رجل قوي، لاسيما بعدما اكتشف تواطؤ قائد درعة الجديد ـ الخياط بن منصور ـ مع أبي النصر [58]، لذلك كله لم يجد بدا من الرجوع إلى ابنه المولى الشريف، العدو القديم لأبي النصر [59]، ليعينه ثانية على عمالة درعة. ومهما يكن فإن السلطان كان كثيرا ما يتراجع عن قراراته فيطلق سجينا من أبنائه أو موظفيه ليوليه من جديد نفس المنصب [60].

وفي أثناء ولايته الثانية على وادي درعة سلك المولى الشريف سياسة الشدة والبأس، فعمل على ضبط حركة الرحل ولاسيما أيت عطا، حيث واجههم بالقوة [61]، الشيء الذي هيأ ظروف الاستقرار والأمن، وفسح المجال أمام سكان

---

55. طلعة المشتري 2 : 79.
56. ن.م.س.
57. الترجمان المعرب : 27.
58. زهر الأكم : 198. أحمد بن محمد أكنسوس : الجيش العرم الخماسي... 87 عين السلطان كاتبه الخياط بن منصورا قائدا على درعة بعدما سرحه من السجن ثم أمر بقتله في نفس السنة (1124)، بعدما اكتشف تواطئه مع ابنه مولاي أبي النصر.
59. زهر الأكم.
60. هناك أمثلة كثيرة في المصادر.
61. G.Spillmann : Districts et tribus de la Haute Vallée du Drâ V.9.T2 P. 1931.63

القصور لممارسة أعمالهم الزراعية، فاتسع العمران، ونشطت الحركة التجارية [62].

وهكذا تدعم الحضور المخزني مجددا، خاصة وأن العامل لم يقتصر على مراقبة الرحل وربط الاتصال مع الزعامات المحلية، بل تعدى ذلك إلى التدخل المباشر في شؤون الزوايا. فقد استطاع أن يتوسط في أثناء النزاع بين موسى الناصري والحسين الشرحبيلي حول مشيخة تامكروت، حيث ساند الشيخ الناصري وقام بأبعاد الشرحبيلي [63] ونتيجة لذلك صار موسى الناصري يدعو للسلطان في خطبه المنبرية [64] وبالرغم من أن الأستاذ أحمد البوزيدي لم يحل على المصدر الذي استقى منه هذا الحكم، فإنه ليس من الغريب أن يتراجع موسى الناصري عن موقف أسلافه بصدد تلك القضية التي خلقت جوا من التوتر بين المخزن والزاوية. وإذا صح ذلك فإن الحضور المخزني قد حقق هدفا بالغ الأهمية. فدخلت الزاوية عهدا جديدا حيث صارت فروعها في مختلف جهات المغرب امتدادا لذلك الحضور [65].

وللاشارة فإن ممثل السلطان بدرعة كان مدعوما بقائد قوي يدعى عبد الرحمن مرجينه، الذي سهر على تنفيذ سياسة العامل بالمنطقة. إلا أنه ضيق على السكان في ميدان الجباية، فلم يعف أحدا بما في ذلك الزاوية وشيوخها بلغ مثلا ما ناب الزاوية سنة 1716/1129، ثمانية آلاف مثقال [66] وكان جباة المخزن يقومون بخرص الغلات، وتقسيم الوظائف المخزنية داخل الزاوية [67].

وليمعن القائد في التضييق على تامكروت فقد حاصرها، واعتقل عددا من

---

62. أحمد البوزيدي : 191.
63. ن.م.س. : 215.
64. ن.م.س.
65. الملاحظ أن كثيرا من فروع الناصريين في الأطلس كانت قريبة أو مجاورة للقصبات السلطانية مثلا : ووزغت، الصومعة، تمسكورت ... كما أن عليا بن عبد الله الحمامي كان ناصريا، ووظفه المخزن في عمليات استرجاع الثغور المحتلة .. ولعب الخمالشة الناصريون دورا في محاربة الاسبانيين في شمال المغرب. راجع محمد بن عبد الله الخليفتي : الدرة الجليلة في مناقب الخليفة ... تحقيق ذ. أحمد عمالك د.د.ع. كلية الآداب ـ الرباط 1986 في جهات متفرقة وكذلك G. Spillmann : Esquisse d'histoire religieuse du Maroc. Paris 1951 p. 209
66. محمد المكي الناصري : الروض الزاهر في التعريف بالشيخ ابن حسين وأتباعه السادات الأكابر خع ق. 187. 222.
67. الدرة الجليلة : 78 ـ 79.

مرابطيها [68]. يبدو أن المولى الشريف قد أطلق اليد للقائد وأعوانه لممارسة الضغط على الزاوية الناصرية، مستغلا الظرفية الجديدة، وحتى يفند ما قد يتبادر إلى ذهن والده، حول ممالأة شيوخ الناصريين.

إلا أن عسف ممثلي المخزن في ميدان الجباية أضر كثيرا بالحضور المخزني في منطقة درعة، حيث تسبب في تذمر السكان وخاصة في واحات محاميد الغزلان [69].

ومن خلال الوثائق المحلية يبدو أن عامل السلطان قد أرغم سكان درعة على تموين المحلة العسكرية عن طريق التداول [70].

ورغم تمرد سكان محاميد الغزلان سنة 1135/1722، يمكن القول أن المولى الشريف قد عمل على تكريس الحضور المخزني الفعلي بوادي درعة – من مزكيطة إلى المحاميد. ومن مظاهر ذلك أن الحملة العسكرية التي وجهها السلطان لتأديب الثوار، قد مرت بترناتة، حيث تصدر العامل لقيادتها [46]. وبعدما قامت بتمهيد المنطقة رجعت إلى قصبة اغلان، حيث استراحت الجيوش طيلة ستة أيام، بعدها ظعنت تاركة العامل مع حاميته [47]. فحقق في أثناء ولايته استقرارا لم تشهد المنطقة له مثيلا، قبله ولا بعده. فوقف سدا منيعا أمام عبث القبائل المتنقلة ولاسيما أيت عطا [71].

وحين توفي هذا العامل – ولم يكن قد مضى على وفاة والده أكثر من شهرين – دخلت البلاد في فترة مضطربة. فعصفت وفاته بكل ما أسسه من استقرار وأمن، ذلك أن القبائل المتنقلة استأنفت نزوحها نحو وادي درعة، فضيقت على سكان القصور وجاست خلال الديار [72].

والخلاصة أن سياسة الشدة التي سلكها المولى الشريف في أثناء ولايته الثانية على عمالة درعة، قد جعلت الحضور المخزني ظرفيا، لأن الاستقرار الذي حققه لم يدم، حتى إن درعة قد دخلت بعد وفاته في مرحلة صعبة، لاسيما وأنها لم تكن بعيدة عن مطامع الأمراء المتناحرين.

---

68. الدرة الجليلة : 125.

69. Relation de Thomas Pellow : 118

70. أحمد البوزيدي : 191.

71. ن.م.س. : 258 و 455.

72. ن.م.س. : 455.

واتسم الحضور المخزني بطابع عدم الاستمرار بعد وفاة المولى اسماعيل. في اطار الصراع بين أحمد الذهبي وعبد الملك ابني اسماعيل، وجه هذا الأخير رسائل إلى الأعيان وذوي النفوذ بوادي درعة، ومن بينهم موسى الناصري، شيخ تامكروت [73].

ولما بويع المولى عبد الله بن اسماعيل بعث بجيش إلى وادي درعة، بزعامة موسى الجراري، قوامه 2500 رجل لجباية الضرائب، وإعادة هيبة المخزن إلى المنطقة. لكن الحملة العسكرية أبيدت تقريبا، إذ لم يعد مع القائد إلى مكناس إلا حوالي مائتي نفر [74].

وبعد هذه الحملة لم نعثر على صدى للحضور المخزني بوادي درعة. لعل ذلك راجع إلى اضطراب الأحوال في بلاد المغرب عامة. مما يجعلنا نعتقد أن درعة عرفت بدورها فراغا سياسيا وإداريا، استغله أيت عطا فهاجموا سكان الواحات، ونهبوا مزورعاتهم وبساتينهم، وخربوا القصور، وعرقلوا العمليات التجارية. وقد سجل أبو مدين الدرعي في أثناء رحلته، حين مر ببلاد دادس سنة 1739/1152، ما كان يقوم به أيت عطا فقال : «إن الحرب لا تنفك عن هذه القبائل، وظلت متصلة لسنين، وحاول بعض فقهاء موكب الحجاج إبرام الصلح بين القبائل إلا أنهم لم يفلحوا» [75] ولعل هذه الاضطرابات قد استمرت طيلة عهد «الفترة».

وعند مبايعة السلطان سيدي محمد بن عبد الله أنعم على تامكروت بظهير يخولها الحصول على عشرة قناطير من الحديد [76]، لتجسيد نوع من الحضور المخزني بوادي درعة عبر الزاوية الناصرية، هذه الزاوية التي حاول المخزن أن يصطنعها لتكون إحدى وسائل نفوذ سلطته في جهات متعددة قبل هذا التاريخ [77].

لقد حاول هذا السلطان بدوره استعادة هيبة المخزن بوادي درعة فسلك سبيلين متكاملين :

73. الدرر المرصعة : 481.

74. Districts : 65-66

75. أبو مدين الدرعي : الرحلة خع.ق. 297 ثانية مجموع الرباط. 272.

76. عبد الرحمن ابن زيدان : اتحاف أعلام الناس (3 : 122 ـ 123).

77. راجع الاحالات : 65 و 70 و 71 و 72.

1. بسياسة الانعامات وظهائر التوقير والاحترام استطاع هذا السلطان مصادرة استقلال الزاوية، فسخرها لخدمة المخزن، وصارت إحدى وسائل دعم حضوره. وقد تجلى ذلك في عدة مناسبات منها أن الشيخ يوسف الناصري قد توسط مرة لتخليص الباشا سعيد بن العياشي الذي حاصرته القبائل [78]...

2. توجيه حملات عسكرية إلى المنطقة كلما دعت الضرورة. ومعنى ذلك أنه تخلى عن تعيين عمال قارين يمثلون المخزن بوادي درعة، وهي خطة ـ يبدو أنها ـ لم تكن ناجعة. وهكذا وجه حملة عسكرية إلى المنطقة بقيادة أحمد تنغراسن سنة 1758/1172. لكن العامل بدل أن يعمل على تدعيم الحضور المخزني، عمد إلى تخريب قصور القبائل الخارجة عن الطاعة، مما أدى إلى فشل مهمته [79] فدخلت درعة من جديد في عهد من الاضطرابات، دام عدة سنين.

وقد تفاقمت الأحوال حين صادفت الأزمة الغذائية التي ضربت المغرب فيما بين 1776 ـ 1783، الأمر الذي جعل أهل درعة يتوجهون إلى السلطان طالبين منه أن «يعمل عليهم الباشا سعيد بن العياشي [80]، «وبمجرد ما وصل القائد الجديد إلى درعة، ونزل بقصبة أغلان، حتى شرع في تطهير المنطقة من عناصر الشغب إلا أنه فشل في المهمة المنوطة به [81]. وعلى إثر ذلك عرفت درعة فراغا إداريا ظل ممتدا حتى سنة 1777/1191، حيث بعث نفس السلطان بابن عمه ووزيره مولاي علي بن الفضيل» عاملا على درعة، لكنه فشل بدوره، بل لقد قتل على أيدي أيت عطا [82].

يبدو أن اضطراب أيت عطا ظل متواصلا طيلة العهود الموالية، ففي عهد المولى سليمان استولوا على عدد من القصور في فزواطة ولكتاوة، وألحقوا أضرارا بليغة بالسكان وأراضيهم. فقدم أهل درعة مجددا على السلطان «يطلبون منه عاملا يكون عليهم «...» فوجه معهم أحمد بن علي تنغراسن عاملا عليهم [83].

78. أحمد البوزيدي : 260.

79. ن.م.س.

80. سليمان الحوات : الروضة المقصودة والحلل الممدودة في مآثر بني سودة خع د. 2211. الرباط 425.

81. راجع المرجع المذكور عند الاحالة : 78.

82. محمد عبد السلام الضعيف : تاريخ الدولة السعدية. تحقيق ذ. أحمد العماري الرباط 1986 . 179.

83. ن.م.س : 302.

بالاضافة إلى ذلك أعاد السلطان العمل بالحملات المتنقلة، حيث وجه حملة عسكرية إلى درعة سنة 1801/1216، عمل عليها كاتبه سابق الذكر وإذا كنا لا نعرف بالضبط مصير تلك الحملة، فإن الضعيف يخبرنا أن العامل قد بعث إلى السلطان بثلاثين قنطارا من المال، وستة عشر أمة وأربعة عبيد ...[84] مما يشير إلى أنها حققت بعض نتائجها المؤقتة لكن يبدو أن المخزن لم يستطع توطيد حضوره الدائم بوادي درعة عن طريق تعيين عمال قارين ودعمهم بين الفينة والأخرى بحملات عسكرية متنقلة لذلك سلك مولاي سليمان سياسة جديدة تمثلت في تعيين قواد محليين عهد إليهم بحكم المنطقة إلا أن هذه السياسة بدورها لم تفلح أمام تصاعد هجومات أيت عطا، الأمر الذي دفع سكان الواحات إلى العودة إلى إبرام عهود ومواثيق مع القبائل المتنقلة، دعاها الأستاذ أحمد البوزيدي، بالاتفاقيات التكفلية[85]. لجأوا إلى تلك الاتفاقيات لحماية مصالحهم، بسبب تراجع الحضور المخزني.

وقد عثر الباحث المذكور على عدة اتفاقيات من هذا النوع، واستنتج أن أصحاب الزوايا كانوا من السابقين إلى التعامل بتلك الاتفاقيات مع أيت عطا[86].

استنتاجـــات :

وبعد، ماذا يمكن أن نستنتج من هذا العرض ؟

لعله من الطبيعي أن نتمادى في التساؤل ما دامت هذه المحاولة تمهيدا لمشروع بحث أوسع. لذلك من حقنا أن نتساءل من جديد عن طبيعة الحضور المخزني وعن مدى استمراريته في أثناء هذه الحقبة، وهل حقق بعض أهدافه ؟ وماذا استفادت درعة من محاولات تكريس ذلك الحضور ؟

ليس بإمكاننا الآن أن نجيب عن هذه التساؤلات، ولكن سنحاول أن نبدي بعض الملاحظات التمهيدية.

1. حاول المخزن تأكيد حضوره بوادي درعة عن طريق عمال، كان معظمهم من الأمراء، مما يدل على الأهمية التي أولاها لهذه المنطقة. ولعل هذا من الأمور التي انفردت بها درعة. إلا أن المخزن لم يكن يزود عماله بالأعوان

84. ن.م.س. : 309
85. أحمد البوزيدي : 263.262
86. ن.م.س.

الضروريين لتنفيذ الأحكام المخزنية، باستثناء الجيش والجباة، مما يعطي لهذا الحضور طابع القوة والقهر. وهذا لم يسهم في بلورة ذلك الحضور وديمومته.

2. حقق الحضور المخزني بعض غاياته. فقد استطاع العمال مراقبة الزعامات المحلية، وردع القبائل المتنقلة، وجباية الأموال، وحافظ بالتالي على استمرار الروابط بين المركز والمحيط.

3. لعبت الزاوية الناصرية دورا مهما في دعم الحضور المخزني، بل شكلت في بعض الأحيان امتدادا له. وكان ذلك مبكرا، أي منذ عهد الشيخ محمد ابن ناصر. ولعل هذا شيء جديد بالنسبة لهذا العرض، لأن معظم الدراسات إن لم نقل كلها قد أرجأت التقارب بين المخزن والزاوية إلى عهد الشيخ يوسف الناصري (1157 ـ 1197 / 1744 ـ 1783).

4. لم يكن الحضور المخزني بوادي درعة مصدر استقرار دائما، بل لقد كاد أن يشعل فتيل الاضطرابات أكثر من مرة. ولعل الصراع العسكري الذي نشب بين أبناء السلطان اسماعيل حول عمالة درعة أبرز مثال. وهنا أيضا لولا تدخل شيخ الزاوية بين الفرقاء وحملهم على إيقاف الصراع لآل الأمر إلى كارثة قد لا تبقى ولا تذر.

5. إن ارتباط الحضور المخزني بشخص العامل، قد جعل المنطقة تعود إلى الاضطراب بمجرد اختفائه، لأنه لا يخلف في الغالب من يمثل «المخزنية» بعده.

6. وبالرغم من أن أولائك العمال كانوا معنيين من قبل السلطان لينوبوا عنه في تطبيق الشرع، فباستثناء بعضهم، لم يكونوا دائما مهتمين بجانب الأحكام، لأن همهم الأكدى كان منحصرا في المحافظة على الاستقرار، وقطع دابر الثوار الخارجين عن المخزن.

7. لم يكن وادي درعة منطقة هامشية بعيدة عن الأحداث الكبرى التي عرفتها البلاد، بل كانت مندمجة فيها، وتأثرت باستمرار بما كان سائدا في المركز.

8. كان الحضور المخزني ـ خلال العصر العلوي الأول ـ قد اعتوره مد وجزر، حسب الظرفية السائدة، ولم يكن مدعوما باستمرار، حتى إن المخزن أبدى نوعا من العجز في بعض الأطوار، مما دفعه إلى تسخير طاقات أخرى ـ فيما بعد ـ لمراقبة المنطقة عن كثب.